لا تُحِب ولا تَكْره[1]

عنوان هذه المقالة من التعبيرات الدارجة لدى سكان وسط الجزيرة العربية. والمراد به ليس حرفية الكلمات بمعنى نهي الإنسان عن الحب والكراهية، وإنما ما يَتضمَّنه معنى الآية الكريمة: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ﴾ [البقرة: ٢/٢١٦].

ما ارتكبه الصهاينة من جريمة ضد أسطول الحرية، الذي كان مُتَّجهاً إلى غَزَّة حاملاً متضامنين من جنسيات عديدة ومعهم معونات إنسانية لأهل تلك البلدة المحاصرة ظلماً وعدواناً، أمر ليس بغريب. ذلك أن الدولة الصهيونية دولة قامت أساساً على الإرهاب، وهذا ما ذكره بكل افتخار وغطرسة مجرم الحرب مناحيم بيجن، الذي كان رئيس وزراء لتلك الدولة، والذي اشترك مع الرئيس المصري في جائزة نوبل للسلام؛ وذلك في كتابه المنشور بعنوان ترجمته بالعربية: **الثورة**. ولقد ظَلَّت الدولة الصهيونية مُتَّصفة بالإرهاب منذ قيامها على أرض فلسطين، التي كانت طاهرة فدنَّستها. ظَلَّت ترتكب الإرهاب بمختلف وجوهه البشعة، واثقة كل الثقة أنها تمسك بتلابيب كثير من زعماء الغرب المهيمنين على مجريات شؤون العالم بصفة عامة، وأن من هم أمامها من قادة العرب لم ينجحوا إلا في التفنُّن باحتساء كؤوس الذُّل والهوان، وإتقان فنون تدجين شعوبهم، والمهارة في أساليب الانغماس في الفساد واختلاس الأموال

(١) نُشِرت في صحيفة **الجزيرة** بتاريخ ٢٣/٠٦/١٤٣١هـ الموافق ٠٦/٠٦/٢٠١٠م.

العامة. ومن لم ينجح منهم في هذه الأمور، أو في أحدها، فإنه نادر، والنادر لا حكم له كما يقال.

والدولة الصهيونية - وهي ترتكب جريمتها الأخيرة، التي لن تكون آخر جرائمها حتماً - واثقة كلَّ الثقة، أيضاً، أنها مُؤيَّدة كل التأييد من الدولة الأميركية، التي كان قيامها أساساً، كالدولة الصهيونية، على الإرهاب المُتمثِّل في جرائمها الفظيعة ضد شعوب أميركا الأصليين، والتي ظَلَّت تمارس الإرهاب ضد شعوب العالم، وإن كان تركيز إرهابها في العقدين اللذين انتهيا على العرب والمسلمين بصفة خاصة. وقد يوجد من الجهال أو المتجاهلين من لا يرى صحة قول من قال:

سِيَّان قادة أميركا-وإن جَحَدوا- وطُغمةٌ لبني صهيون تَنتسب

الجريمة الصهيونية الأخيرة ضد أسطول الحرية في مياه البحر المتوسط لها جانبان:

الأول يَتمثَّل في نيل من نالوا الشهادة على أيدي مجرمي الحرب، أعداء الإنسانية، من الصهاينة. وكل مؤمن من أُمَّتنا؛ عرباً ومسلمين، يرجو من لا يُخيِّب رجاء المؤمنين أن يَتقبَّلهم شهداء أحياء عند ربهم يرزقون، ويدعو من يستجيب لدعاء عباده لذويهم وأَحبَّتهم من أُمتهم بالصبر والسلوان.

أما الجانب الثاني فهو أن غالبية أولئك الشهداء من مواطني الدولة التركية. والأتراك أمة من صفاتها المشهورة الشمم والشجاعة. والتاريخ شاهد على ذلك. وأظن؛ بل أكاد أعتقد، أن الإعجاب بهم لاتِّصافهم بهاتين الصفتين هو ما جعل ذلك الإعجاب يتبلور ليجد المرء بين العرب من سَمَّى ابنه باسم تركي؛ مثل تركي بن عبد الله آل سعود وتركي بن حميد، أحد زعماء قبيلة عتيبة وفرسانها، وغيرهما، تماماً كما سُمِّي جد

آل سعود باسم مقرن إعجاباً، فيما يبدو، بمقرن بن زامل الجبري، الذي استشهد على أيدي البرتغاليين في شرقي الجزيرة العربية سنة ٩٢٧هـ. وكنت قد أشرت إلى الصفتين المذكورتين في الأبيات التي قَدَّمت بها رئيس الوزراء التركي، رجب طيب أردوغان، في حفل منحه جائزة الملك فيصل العالمية في مجال خدمة الإسلام قائلاً:

إيهِ والمُلتقى زِفافُ عَروسٍ حين تَبدو تَغار منها الحِسَانُ
جُلِّلت بالعَفَافِ ثَوباً قَشيباً وبما راق وُشِّيَت أَردانُ
عَيْبُها أَنها تَتيهُ شُموخاً وبها للعلا هَوىً وافتتان
سألوها: مَن العَرِيس؟ فقالت: رَجبٌ طَيِّب الثنا أردوغانُ
فَارسٌ لاح في المَواقفِ حُرّاً لم يَجِدْ مسلكاً إليه الهَوانُ
شَمَمٌ لا يُذَلُّ أوحاه مَجدٌ أُسُّ مَبْناه جَدُّه عثمان

كانت شجاعة تركيا؛ حكومة وشعباً، قد تَجلَّت في موقفها العظيم ضد العدوان الصهيوني على غَزَّة قبل عام، وهو الموقف الذي كم تَمنَّى العربي أن مواقف أُمته العربية؛ قيادات وشعوباً، كانت مماثلة له.

ثم أتت الجريمة الصهيونية الأخيرة على أسطول الحرية لتوضح مدى حقد الصهاينة على مواقف تركيا النبيلة لأنهم أدركوا - بعد رؤيتهم إدمان العرب على شُرب كؤوس الذُّل والهوان - خروج العملاق التركي من قمقمه رافضاً السكوت على الباطل، ومُصمِّماً على الوقوف مع الحق. وإذا كانت عظمة موقف تركيا قد تَجلَّت إبَّان العدوان الصهيوني على غَزَّة في العام الماضي بحيث تبلورت إلى أفعال شجاعة بينها إلغاء المناورة الجوية، التي كان مقرراً أن تقوم بها مع الكيان الصهيوني، والموقف الذي اتَّخذه رئيس وزرائها راداً على مجرم الحرب، شيمون بيريز، رئيس ذلك الكيان، فإن تلك العظمة قد اتَّضحت أكثر فأكثر تجاه جريمة

الصهاينة الأخيرة، ومن يقارن بين موقف تركيا؛ شعباً وقيادة، ومواقف العرب؛ شعوباً وقيادات، يدرك الفرق بين تلك الدولة الأبية ومواقف الدول العربية الذليلة المذلَّة، ويتضح له مدى احترام دول العالم؛ شرقاً وغرباً، لمن يحترمون أنفسهم ويَتحلَّون بالإرادة والتصميم، ومدى احتقار تلك الدول لمن لا يحترمون أنفسهم، بل يَتَّخذون التمسكن والتوسل إلى جهات لن تَتَّخذ أَيَّ إجراء لإنصافهم.. يَتَّخذونها ملجأ إليهم. وكنت قد أشرت إلى ذلك، قائلاً:

السَّادرون من الحُكَّام ما بَرِحوا يَرجون من سَلَب الأوطانَ واغتصبا
لِمجلسِ الأَمن قد مَدُّوا أَكفَّهمُ سَاء المُؤمِّل والمأمولُ مُنقلَبا
هل يَفرضُ المَجلس الدَّوليُّ سُلطتَه إلا إذا استهدف الإسلامَ والعَرَبا؟

الضَّرب بالميّت حَرَام[1]

من الأمثال الدارجة ذات المدلول العميق لدى سكان وسط الجزيرة العربية هذا المثل الذي جُعِل عنواناً لهذه المقالة. وقد يفهم من يسمعه أو يقرؤه أن المراد بكلمة حرام الواردة فيه حرمة ضرب الميِّت من الناحية الشرعية. وهذه الحرمة مُسلَّم بها بطبيعة الحال. على أن المراد بالمثل حقيقة أبعد من ذلك الفهم القريب للمعنى. فهو عند الكثيرين يعني أنه لا فائدة من محاولة بعث الروح لمن هو مَيِّت معنوياً. وهو - بهذا المعنى - يقرب من مثل دارج آخر يقول: " ما ينفع الطق بالحديد البارد". وهناك أمثلة دارجة أخرى تحاكي معانيها معنى هذين المثلين.

ولم يغفل الشاعر العربي الكبير، أبو الطيِّب المتنبي، عن ذلك المعنى. فمما قاله:

من يَهُنْ يَسهل الهَوان عليه مَا لِجُرحٍ بِمَيِّتٍ إيلامُ

أما بعد:

فإن مما دفعني إلى كتابة هذه المقالة الموقف الأخير لأُمَّتنا العربية؛ عاربة ومستعربة، قياداتٍ وشعوباً، تجاه ما ارتكبه الصهاينة من جريمة بشعة ضد أسطول الحرية. هذا الموقف المخجل - إن لم أقل المخزي - الذي من أوضح وجوهه الدالة على إدمان كؤوس الذُّل والمهانة القرار برفع الأمر إلى مجلس الأمن. وكل من بقيت لديه بقية من ذاكرة ما زال

(١) نُشِرت في صحيفة **الجزيرة** بتاريخ ٠٢/٠٧/١٤٣١هـ الموافق ١٤/٠٦/٢٠١٠م.

يذكر كلام الأمين العام لجامعة الدول العربية القائل بعبارة واضحة جلية: " إن مجلس الأمن تُسيِّره أميركا، وإن أميركا لا تخرج عن رأي إسرائيل أو إرادتها". منذ ثلاثة عقود - على الأقل - واجتماعات الجامعة العربية أقرب إلى العبثية منها إلى الجِدِّية فيما يتصل بالقَضيَّة الفلسطينية بالذات.

لقد كان العرب طليعة حملة الرسالة المحمدية.. رسالة الإسلام الخالدة. وكان ما أنجزته تلك الطليعة مما خَلَّد ذكرهم ومجدهم في صفحات التاريخ. على أن بقاء الحال من المحال. لذلك لم يبق العرب هم الطليعة في حمل تلك الرسالة العظيمة، بمعنى بقائهم قادة للأمة المسلمة يحملون لواء الإسلام ويَذبُّون عن حياض المسلمين. وقد أكون مبالغاً إذا قلت: إن آخر نخوة لدى عربي بصفته قائداً لأمة - ولا أَتحدَّث عن فلتات إقليمية أو قبلية هنا أو هناك - كانت تلك التي خَلَّدت اسم الخليفة المعتصم، والتي أشار إليها الشاعر عمر أبو ريشة؛ وهو يَتحدَّث عن عرب زمننا وزعمائهم قائلاً:

أُمَّتي هَل لكِ بينَ الأُممِ ... مِنبرٌ للسيف أو للقلمِ؟
أَتلقَّاك وطرفي مُطرِقٌ ... خَجلاً من أَمسِك المنصرم
كيف أَغضيت على الذُّل ولم ... تَنفضي عنكِ غُبارَ التُّهم
أَوما كنتِ إذا البَغيُ اعتدى ... مَوجةً من لَهَبٍ أَو من دم؟
فِيمَ أَقدمتِ؟ وأَحجمتِ؟ ولم ... يَشتفِ الثأرُ ولم تَنتقمي
ودعي القادةَ في أَهوائها ... تَتفانى في خَسيسِ المَغْنم
رُبَّ وامعتصماه انطلقت ... مِلءَ أَفواه البناتِ اليُتَّم
لامَستْ أَسماعَهم لكنَّها ... لم تُلامس نَخوةَ المعتصم

كان استنجاد امرأة مسلمة في أطراف الدولة الإسلامية بقائد تلك الدولة باعثاً لإثارة النخوة لديه، وإسراعه في نجدتها والثأر لها. وكان

العرب ما زالوا طليعة قادة الأمة. ودارت الأيام دورتها، ودوام الحال من المحال، كما ذكر سابقاً. وبعد أن احتل فلسطين الفرنجة - أو الصليبيين كما تُسمِّيهم المصادر الأوروبية ومن تبنَّوا هذه التسمية من غيرهم - لم يَتولَّ قيادة الأُمة المسلمة لتطهير القدس من أولئك الذين احتلُّوها عربي من العرب العاربة أو المستعربة؛ بل تَولَّاها كردي نَوَّر الله بصيرته بالإسلام، وألهمه الصواب قائداً للأمة المسلمة في جهادها حتى حَرَّر القدس، وطَهَّرها من دنس المحتلين الفرنجة. بدأ مسيرة المقاومة للتحرير عمادالدين زنكي، وواصل تلك المسيرة نور الدين محمود لتنتهي منتصرة بتحرير القدس على يد صلاح الدين الأيوبي. وما كان لقائد عربي شرف تطهير بقية فلسطين وسواحل بلاد الشام من الفرنجة؛ بل كان ذلك لمسلم غير عربي هو الظاهر بيبرس.

وإذا كان الشاعر عمر أبو ريشة، رحمه الله، قد قال ما قال قبل أكثر من نصف قرن فماذا يقال عنا في الوقت الحاضر؟

قبل ثماني سنوات كتبت مقالة عنوانها: " رحم الله الكرامة" أشرت فيها إلى تَقبُّل العرب؛ مُمثَّلين في زعمائهم، الإهانات الأميركية المتتالية؛ مستخذين ومستدرِّين دائماً لعطف من يعلم الجميع أنهم أعداء لا يرقبون فينا إلًّا ولا ذمة. وقبل ست سنوات كتبت مقالة عنوانها: " ورحم الله الحياء". وكان مما ورد فيها: " كيف يفهم مواطن عربي عادي - مثل كاتب هذه السطور - ما يجري وهو يرى أفراداً من شرفاء الغرب؛ رجالاً ونساء، يأتون إلى فلسطين المحتلة لِيتحدَّوا قوات الصهاينة مُعبِّرين عن احتجاجهم على جرائمها الشنيعة، ويرى في الوقت نفسه قيادات عربية تمنع قوات أمنها مواطنيها من التعبير عما في نفوسهم من ألم عميق وغضب شديد على من يقفون مع مرتكبي هذه الجرائم ضد إخوانهم وأخواتهم".

والإشارة إلى سجايا كريمة؛ مثل النخوة والكرامة والحياء، تجعل المرء يسأل: كيف يُستقبَل بالترحاب في بلد عربي مُجرم حرب مثل أليعازر، الذي أظهرت وسائل إعلام بالكلمة والصورة أنه - في حرب ١٩٦٧م - أمر جنوداً من ذلك البلد العربي أن يَتمدَّدوا على الأرض في سيناء، ثم جعل المجنزرات تمشي فوق أجسادهم؟ وكيف يَتحمَّل قادة ذلك البلد العربي الإهانة بحيث تعلن من بلدهم وزيرة خارجية العدو الصهيوني أن دولتهم ستقوم في اليوم التالي لإعلانها بالهجوم على غَزَّة دون أن ينبس أولئك القادة بكلمة احتجاج؟ وكيف يستقبل قادة عرب آخرون بالترحاب زعماء متصهينين يُؤيِّدون كل عمل إجرامي صهيوني ضد الشعب الفلسطيني؟ وإذا كان من قادة العرب من يرى بقاءه في منصبه مرهوناً برضا زعماء الدولة المُؤيِّدة للكيان الصهيوني في كل جريمة يرتكبها ضد أُمَّتنا فما الذي يمنع الأفراد منا عن أن تَتَّقد في نفوسهم جذوة من إيمان بقَضيَّة هذه الأمة الأولى.. قَضيَّة فلسطين.. بحيث يوقفون اندفاعهم نحو شراء بضائع من يعلنون عداوتهم لها بكل صلف وبجاحة؛ لا سيما إذا كانت هناك بضائع يمكن أن تكون بديلة عنها؟ وما الذي يمنع الأفراد منا عن إيقاف اندفاعهم في التسابق إلى قضاء عطلاتهم في بلدان أولئك المعلنين عداوتهم لأُمَّتنا بكل ذلك الصلف وتلك البجاحة مع وجود بلدان أخرى جميلة مريحة؟

لقد سبق أن أشرت إلى ما قاله الشاعر أبو ريشة عن عرب زماننا وزعمائهم. أما وأنا أرانا لا نجد إلا اللجوء إلى مجلس الأمن أذلَّاء، متوسلين تجاه ما ارتكبه الصهاينة في جريمتهم على أسطول الحرية، فإني أجد من المستحسن ختام هذه المقالة بما قاله شاعر من وطني؛ هو محمد بن عبدالرحمن الفريح، في أبياتٍ كتبها قبل نصف قرن؛ إذ قال:

طَال التوسُّل في الحقوقِ لعُصبةٍ عن مَسلكِ الحق المُبيَّن قد عَمُوا

إنَّا لَنجأر بالشكاةِ ونَرتجي حَقاً تَمَلَّكه العدو المُجرم
والكلُّ يعلم أَن من نشكو له كان العدو فكيف يَهدي المظلم؟
إن لم يكن للحق ما يُحَمى به فالموت أَولى بالنفوس وأَكرم

لقد صدق أبو عبدالرحمن فيما قاله. لكننا ما زلنا نبرهن على أننا مَيِّتون معنوياً. و" الضَّرب بالميِّت حَرَام ".

سَتظلَّ أَميركا مُناصرةً للصهاينة[1]

كل من قرأ تاريخ الدول الحديثة بِتدبُّر يستطيع أن يعرف بعض الأمور المُؤثِّرة على هذه الدول لتتَّخذ ما تتَّخذه من مواقف تجاه ما يجري من أحداث. والكلام في هذه المقالة مُركَّز على أميركا وموقفها من الصهاينة مُمثلَّين في كيانهم العنصري المحتل لفلسطين، وإمكانية تعديل ذلك الموقف. والقارئ لتاريخ هذه الدولة يدرك أن قادة الذين أقاموها كانوا - على العموم - من الأنجلو - ساكسون البروتستانت الذين اتَّخذوا الصهيونية عقيدة لهم بدرجات متفاوتة من التمسُّك بهذه العقيدة. ويدرك هذا القارئ، أيضاً، أن تلك الدولة قامت على الإرهاب بحيث أبادت شعوب أميركا الأصليين بمختلف وسائل الإجرام البشعة الفتاكة.

ولقد ظَلَّ التصهين وارتكاب الجرائم ضد الآخرين صفتين لازمتين للسياسة الأميركية الخارجية. أما التصهين فَظلَّ صفة لازمة لتلك السياسة؛ سواء كان القادة الأميركيون متصهينين عقيدة، أو كانوا مضطرين إلى إظهار تعاطفهم مع الصهاينة والوقوف مع كيانهم في ارتكاب جرائمه الفظيعة رغماً عنهم؛ وذلك لما للصهاينة من نفوذ قوي داخل أميركا. وأما الصفة الإرهابية الملازمة للدولة الأميركية فقد اتَّضحت - وما زالت تتَّضح - في ارتكابها جرائم ضد الآخرين. ومن هذه الجرائم ما ترتكبه مباشرة، ومنها ما ترتكبه عن طريق عملائها في مناطق مختلفة من العالم.

---

(١) كان للمقالة أن تُنشَر في ٩/ ٧/ ١٤٣١هـ- ٢١/ ٦/ ٢٠١٠م، لكنها لم تجد الطريق إلى النشر.

أما بعد:

فإن من دوافع كتابة هذه المقالة ما تناقلته بعض وسائل الإعلام في الآونة الأخيرة حول خيبة أمل كثير من المسلمين؛ وبخاصة شعوبهم، في سياسة الرئيس أوباما. على أني لم يخطر ببالي - وأنا واحد من هذه الشعوب - أيُّ أمل في أن تختلف سياسة هذا الرئيس عن سياسات من سبقوه إلى الرئاسة الأميركية بالنسبة لقضايا أُمَّتنا بصفة عامة وقَضيَّة فلسطين بخاصة. ولقد أوضحت ذلك في مقالة من أربع حلقات نُشِرت أسبوعياً في صحيفة **الجزيرة** بعنوان "بعد الخطاب المنتظر". والمراد بالخطاب، هنا، ذلك الخطاب الجميل سبكاً الذي ألقاه الرئيس المحترم في جامعة القاهرة؛ مُوجَّهاً، بصفة خاصة، إلى المسلمين، وهَلَّل وكَبَّر له كثيرون مع أنه لم يضف، في حقيقة الأمر، ما هو جديد إيجابي بالنسبة للقَضيَّة الفلسطينية بالذات. وكان نشر أولى تلك الحلقات بتاريخ ١٥/ ٦/ ٢٠٠٩م؛ أي قبل عام من الآن. ثم نُشِرت مع مقالات أخرى في كتاب عنوانه: **عام من الذُّل والانخداع**، وصدر عن دار الفكر بدمشق عام ٢٠١٠م.

وكان مما قلته في تلك المقالة: إن أُمَّة تلقي مسؤولية حَلِّ قضاياها على عاتق غيرها أُمَّة غير جديرة بالاحترام، ولن ترجع إلا بخفَّي حنين في مسعاها. وإن أميركا - والحديث عن خطاب رئيسها في جامعة القاهرة - دولة مؤسسات. ومن أدلة ذلك أن محاولة الرئيس بوش الأب عدم الموافقة على مساعدة الكيان الصهيوني بالأموال الطائلة التي طلبها ما لم يَتوقَّف بناء المستوطنات (المستعمرات السرطانية) في الأراضي المحتلة من فلسطين عام ١٩٦٧م باءت بالفشل. ذلك أن الكونجرس، الذي يسيطر عليه أعوان ذلك الكيان، ضغط على الرئيس حتى نال الصهاينة ما أرادوا.

وكان مما قلته، أيضاً، في تلك المقالة: إنه ورد في خطاب أوباما،

المشتمل على ما يدغدغ عواطف بعض من ينتشون بسماع الكلام المطرب، إشارة إلى أن أميركا لا تُكنُّ أيَّ نوع من العداوة تجاه ديانة المسلمين، كما قال جون آدمز، ثاني رئيس لتلك الدولة، عام ١٧٩٦م. لكن الرئيس أوباما نسي، أو تناسى، أن جون آدمز نفسه هو الذي دعا، سنة ١٨١٨م، إلى قيام دولة يهودية مستقلة في فلسطين. وكانت تلك الدعوة قبل إعلان وعد بلفور المشؤوم بمئة عام. ونسي، أو تناسى، أن أول رئيس دولة غربي أيَّد ذلك الوعد كان الرئيس الأميركي ويلسون؛ وذلك بعد بضعة شهور فقط من صدور ذلك الإعلان.

وبعد تلك المقالة عن خطاب الرئيس أوباما كتبت مقالة صدى لذلك الخطاب المدغدغ لعواطف بعض من يعجبهم ويطربهم أسلوب القول أكثر مما يَتضمَّنه من معنى ومدلول. وقد شفعت تلك الكتابة، الصدى، بقصيدة مطلعها:

تَـأمَّـلـت فـيـمـا قـال بَـاراك أُوبـامـا فَألفيتُ ما أَبداه حَولَ الحِمَى حاما

ومن أبياتها:

ونحن الأُلَى أضحى لنا الذُّل شِيمةً وصِرْنا جَماعاتٍ تُدَاس وأَقواما
ونَبدو أُسوداً عند خِيرةِ أَهلِنا وعند أَعادينا خِرافاً وأَقزاما
مَساكينُ نحن العُرْب يكفي نُفوسَنا مُجاملةً من ساسة الغرب إكراما
وإن مَنَّ بالقول الجميل مُفوَّه هَتَفنا وَرَدَّدنا: "نُحبُّك أُوباما"

أجل. كان في بعض العبارات من خطاب الرئيس أوباما المُوجَّه من جامعة القاهرة إلى العالم الإسلامي ما انتشى بألفاظه من ينتشون بالكلام المزخرف؛ وبخاصة إذا كان من غير عربي أو مسلم. وكان ذلك ما دفع أحد الحاضرين إلى أن يهتف بالإنجليزية قائلاً: " نحبك يا أوباما". على أن من يعرفون تاريخ الحكومات الأميركية المتعاقبة، ويعرفون كيف تُتَّخذ

المواقف في أميركا، يدركون أن الكلام الذي يقال، أحياناً، على ألسنة رؤساء تلك الدولة سرعان ما يتبيَّن من المواقف ما هو مناقض له تماماً.

ودولة أميركا ذات الصولة المتعجرفة في العالم كانت - وما زالت - غير مريدة، أو غير مستطيعة، أن تبدي من المواقف ما لا يريده الكيان الصهيوني. بل إنها لم تَردَّ، أو لم تستطع، أن تَردَّ على ما ارتكبه هذا الكيان ضدها هي من إرهاب. ومما ارتكبه ضدها من جرائم لم تُردَّ، أو لم تستطع، الرَّد عليها الجريمة التي سمِّيت " عملية سوزانة" حين تآمر الصهاينة لاغتيال أميركيين وتفجير مؤسسات أميركية في مصر، عام ١٩٥٤م، بهدف إلصاق التهمة بالمصريين. وكان من نتائج اكتشاف الحقيقة أن اضطر وزير خارجية ذلك الكيان الإجرامي، لافون، إلى الاستقالة. ومن تلك الجرائم قصف السفينة الأميركية "الحرية" خلال حرب عام ١٩٦٧م. وبدلاً من أن تَتَّخذ الدولة الأميركية إجراء عقابياً على هذه الجريمة التي راح ضحيتها ٣٤ قتيلاً و١٧١ جريحاً أميركياً اضطرت إلى أن تمنع الناجين من ذلك القصف الإجرامي من الإدلاء بأيِّ تصريح عن الذين قصفوا السفينة. بل إن الكاتب الأميركي، ديفيد ديوك، أورد في مقالة مُطوَّلة له أدلة قوية على أن قادة الصهاينة كانوا يعلمون بما سيحدث في الحادي عشر من سبتمبر قبل حدوثه، ولم يخبروا أميركا بذلك.

وإذا كانت أميركا لم ترد، أو لم تستطع، أن تقف موقفاً حازماً ضد الكيان الصهيوني لجرائمه التي ارتكبها ضد أميركا نفسها فهل من المُتوقَّع، أو المُؤمَّل، أن تقف ضده لجرائمه المرتكبة ضد العرب والمسلمين، الذين لا يُكنُّ لهم القادة الأميركيون وُدّاً؟ ما حدث بعد خطاب أوباما في جامعة القاهرة يبرهن على أن حكومة هذا الرئيس غير مريدة، أو غير مستطيعة، أن تخالف إرادة الكيان الصهيوني. ظهر هذا جلياً في موقفها من استمرار بناء المستوطنات الصهيونية، ومن تهويد

الصهاينة للقدس، كما ظهر في تأييدها الفاحش لتضييق الخناق على أهل غَزَّة، وفي كلمات نائب الرئيس الأميركي الواضحة الجليَّة في الدفاع عن الجريمة التي ارتكبها الصهاينة ضد أسطول الحرية الحامل لشرفاء من العالم يحملون مساعدات إنسانية لأهل غَزَّة المحاصرين؛ صهيونياً ومن بعض العرب المؤتمرين بأمر أميركا.

وإني لأكاد أجزم أن أميركا - بتنسيق مع الكيان الصهيوني - سوف تبدأ العمل على التخلُّص من التوجُّه الداعم للحق والإنصاف في تركيا. وقد لاحت بوادر ذلك من مطالبة فئة في الكونجرس - قد تبدو قليلة العدد الآن - بالمطالبة باتِّخاذ إجراءات صارمة ضد تركيا لاتِّخاذها ما اتَّخذته من موقف نبيل تجاه قَضيَّة فلسطين؛ وبخاصة ما ارُتكِب من عدوان ضد غَزَّة قبل عام، وما وُضِع من حصار جائر لأهلها.

مَرَّة أُخرى.. هذا هو العصر الصهيوني[1]

كنت قد كتبت مقالة عنوانها " هذا هو العصر الصهيوني"، ونُشِرت في صحيفة **الجزيرة** الغَرَّاء عام **٢٠٠٣**م؛ أي العام الذي احتل فيه أعوان الصهاينة بلاد الرافدين. وكان مما قلته في تلك المقالة: لقد بدأ اليهود جهودهم المُكثَّفة لفرض نفوذهم على العالم بوسائل مُتنوِّعة منذ زمن بعيد. وكان من تلك الجهود بَثُّ مبادئ الماسونية التي راقت لعدد من ذوي المكانة السياسية والاجتماعية في أقطار المعمورة؛ وبخاصة المُتقدِّمة علمياً واقتصادياً؛ مثل أوروبا وأميركا. ثم نشطوا على مسرح الأحداث بترسيخ فكرة الصهيونية التي لم يقتصر اعتناقها على فئات من اليهود فحسب؛ بل أيَّدها واعتنقها فئة لا يستهان بها عدداً ومكانة من المسيحيين أيضا. وأصبحت كلٌّ من الماسونية والصهيونية تكمل الواحدة منهما الأخرى.

ولقد تَكلَّمت في المقالة المشار إليها باختصار عن نفوذ الصهاينة في الغرب؛ وبخاصة في أميركا وبريطانيا وفرنسا. أما نفوذهم في أميركا؛ وهي ذات الصولة والجولة في العالم منذ الحرب العالمية الثانية، فيعلمه الكثيرون. وأما نفوذهم في بريطانيا واضعة بذور نكبات أُمَّتنا في فلسطين بخاصة فقد تَحدَّثت عن شيء منه في مقالة نشِرت في صحيفة **الجزيرة**، أيضاً، عام **٢٠٠٤**م، بعنوان: " من تاريخ التصهين البريطاني". وأما فرنسا فلم يُقصِّر كثير من رجالاتها في إظهار ولائهم للصهاينة. وقد كسب هؤلاء

---

(١) نُشِرت في صحيفة **الجزيرة** بتاريخ ١٦/ ٠٧/ ١٤٣١هـ الموافق ٢٨/ ٠٦/ ٢٠١٠م.

قادة الثورة الفرنسية إلى جانبهم. ثم أتى نابليون الذي كان أول رجل دولة غربي يقترح، عام **١٧٩٩**م، إقامة دولة يهودية في فلسطين ويُكلِّم اليهود بذلك. وفي عام **١٩٥٦**م اشتركت فرنسا مع بريطانيا والكيان الصهيوني في عدوان ثلاثي على مصر كان من نتائجه استيلاء الصهاينة على مزيد من أرض فلسطين، وترسيخ لاغتصابهم ما سبق أن اغتصبوه منها، ثم مَرَّت سنوات وهي المُمد للكيان الصهيوني بطائرات الميراج الحربية المتقدمة حينذاك. بل كانت عونه وسنده في إنشاء مفاعله النووي في صحراء النقب.

ولقد نُشِرت كل من المقالتين المشار إليهما سابقاً ضمن كتاب نشرته دار الرائي في دمشق، عام **٢٠٠٥**م، بعنوان **مقالات عن الهم العربي**.

وإذا كان ما أُشِير إليه متناولاً باختصار شديد نفوذ الصهاينة في الغرب مُمثَّلاً في ثلاث دول هي أميركا وبريطانيا وفرنسا فماذا عن نفوذهم في روسيا؛ قيصريةً سابقة وثورة على تلك القيصرية؟ كانوا ينخرون في جسد تلك القيصرية تهيئة لثورة تكون فيها لهم الكلمة العليا والمكانة الأولى. وممن تحدَّث عن دور اليهود - وأغلبهم صهاينة - في الثورة البلشفية التي أطاحت بالقيصر الروسي، عام **١٩١٧**م، الكاتب الأميركي ديفيد ديوك؛ وذلك في كتابه الذي نُشِر سنة **١٩٩٨**م بعنوان ترجمته بالعربية **الصحوة**، وترجمه إلى العربية الدكتور إبراهيم الشهابي، فصدرت الترجمة عن دار الفكر بدمشق عام **١٤٢٣**هـ. ومما قاله ديوك للتدليل على ذلك الدور ما يأتي:

"إن بطاقة بريدية وُزِّعت على نطاق واسع في الشهور التالية للثورة البلشفية التي حدثت في روسيا، كانت تتضمَّن صور ستة من زعماء تلك الثورة؛ وهم: لينين، الذي كانت أمه يهودية، وكان يتكلَّم اليديشية في بيته ومُتزوِّجاً من يهودية، وتروتسكي، واسمه اليهودي ليف برونشتاين، وزينوفيف، واسمه اليهودي هيرش أبفيلباوم، ولونا كادسكي، وهو غير يهودي، وكامينوف، واسمه اليهودي روزنفيلد، وشيفر دلوف؛ وهو يهودي أيضاً".

وإضافة إلى ما سبق كان على رأس البوليس السرِّي الروسي يهودي اسمه موسى أوريتزكي. وكان كبار أعوانه من اليهود وبينهم ياجودا - وهي كلمة روسية معناها "يهودا" - الذي أشرف على تنفيذ برامج راح ضحيتها أكثر من عشرة ملايين. وكان أقطاب الذين نظَّموا معسكرات الاعتقال الرهيبة ستة كلهم من اليهود. ولهذا كله لم يكن غريباً أن الحزب الشيوعي اتَّخذ خطوة لا سابقة لها في جعل التعبيرات "اللاسامية"؛ أي التي ضد اليهود، جريمة مضادة للثورة يعاقب عليها بالموت.

وكان الاتحاد السوفييتي ثاني دولة تعترف بشرعية وجود الدولة الصهيونية على أرض فلسطين. وخلال الحرب الباردة بين حلف وارسو المُكوَّن من الاتحاد السوفيتي والدول الدائرة في فلكه وحلف الأطلسي المكوَّن من الدول الغربية وعلى رأسها أميركا شهدت سنوات مرحلة وقف فيها ذلك الاتحاد - لأسباب ليس هذا مَحلَّ ذكرها - مع العرب وقضيتهم الفلسطينية. لكنه ما لبث أن سمح بهجرة اليهود من البلدان التابعة له إلى الأراضي المحتلَّة في فلسطين بحيث ازدادت بهم قوة الكيان الصهيوني عدداً، كما صادر من أجلهم مزيداً من أراضي فلسطين المحتلَّة. وفي زيارة الرئيس الروسي الأخيرة لسورية كان مطلبه الذي طلبه من خالد مشعل عند مقابلته إيَّاه هو إطلاق سراح الجندي الصهيوني شاليط المعتقل لدى حماس. لكنه لم يشر أَيِّ إشارة إلى أكثر من أَحد عشر ألف سجين فلسطيني في سجون الكيان الصهيوني العنصري الذين منهم نساء وأطفال ومراهقون.

أعلم أن هناك أناساً منصفين في البلدان الغربية، وأن لهم مواقف نبيلة في مساندة الحق الفلسطيني القائم على العدل، وفي معارضة الظلم الصهيوني وجرائمه البشعة. فأكثر من وقفوا، ويقفون، ضد جدار الفصل العنصري في الضفة الغربية المحتلة من الغرب، وكثير من الجامعات في

بريطانيا قاطعت جامعات الكيان الصهيوني. بل إن هناك حملة قوية، يترأسها أكاديمي يهودي من داخل هذا الكيان، تنادي بمقاطعة جامعاته لما ارتكبه ويرتكبه زعماؤه من جرائم فظيعة ضد الفلسطينيين، وإن مئة جامعة في أميركا استجابت لندائه، كما ورد في مقالة للدكتور عبدالعزيز التويجري نُشِرت في صحيفة **الحياة** بتاريخ ٢٥/٦/ ٢٠١٠م. وأعلم، أيضاً، أن المحكمة الدولية أَبدت رأيها بأن جدار الفصل العنصري غير شرعي ويجب أن يُزال، وأن تقرير جولدستون صدر مديناً لمجرمي الحرب الصهاينة على جرائمهم، وأن هناك تنامياً واضحاً لإدراك شعوب العالم المُضلَّلة بالإعلام الصهيوني الشرِّير حقيقة الصهاينة وما يرتكبونه من جرائم. وكُلُّ هذا مُقدَّر ومشكور وباعث على الأمل. لكني ما زلت أرى أن كل هذه المواقف النبيلة المُقدَّرة المشكورة الباعثة على الأمل لم تُغيِّر كون العصر ما زال عصراً صهيونياً من الناحية العملية. ذلك أن من في أيديهم القرار الحاسم المُؤثِّر في العالم ما زالوا منحازين إلى الصهاينة؛ تصهيناً عقيدة أو خوفاً على مناصبهم من النفوذ الصهيوني. وما زلت أرى أن هناك أمرين: الأول - وهو الأهم - أن ندرك نحن أصحاب قضايانا أن علينا وحدنا الاعتماد على الله ثم على أَنفسنا لِحلِّ هذه القضايا بطريقة عادلة واتِّخاذ الوسائل الضرورية لتحقيق ذلك. والثاني أن ندرك بأن من لا يشاركوننا عقيدتنا لا يؤمل ولا يُتوقَّع أن يقفوا معنا موقفاً جِدِّياً عادلاً. وما زلت عامياً يتملَّك تفكيري المثل العامي القائل: " اللِّي ما هوب على دينك ما يعينك". على أننا - مع الأسف الشديد - نعيش في زمن لا يعينك من هو ظاهرياً على دينك؛ بل يقف مع أعداء أُمَّتنا ضدها. قد يأتي اليوم الذي يَتبيَّن فيه العالم على نطاق واسع حقيقة الصهاينة، فيقف ضد جرائمهم. بل قد يأتي يوم يدرك فيه القادة في بلدان العالم القوية أن وقوفهم مع العدل ضد الجور الصهيوني لن يفقدهم مناصبهم. لكن ذلك اليوم قد لا يكون قريباً بحيث يراه جيلنا البائس المنكوب.

مَسخَرة المجتمع الدولي[1]

تَبعية إعلام الضعيف لإعلام القوي أمر مشاهد. وأُمَّتنا؛ عرباً ومسلمين، أمة ضعيفة في حين أن من لا يُكنُّون وداً؛ بل يضمرون ويبدون عداوة، لهذه الأمة أقوياء. لذلك لم يكن غريباً أن يبرهن إعلامنا بمختلف الوسائل على اتِّصافه بتلك التبعية. ومن الواضح أن هذه البرهنة منها ما هو نتيجة انخداع وانزلاق دون تَأمُّل وتفكير، ومنها ما هو نتيجة عشق لكل ما هو آت من جهات لها الهيمنة في مجريات الأحداث الدولية.

وكنت قد كتبت مقالة نُشِرت في صحيفة **الجزيرة**، عام **١٤٢٣**هـ، بعنوان "الانزلاق الإعلامي". ومما ورد في تلك المقالة: تبرز في ثنايا إعلامنا المُتخلِّف؛ محتوى ومنهجاً وأسلوباً، مظاهر تقليدنا لإعلام الغرب القوي المتقدم في هذه الجوانب دون تَحفُّظ أو رَويَّة. ومن ذلك أننا تَبنَّينا ما رَوَّجه إعلام الغرب من تسمية منطقتنا " الشرق الأوسط"؛ وهي التسمية التي كان أساسها الاستعمار البريطاني، حتى رأينا لنا وكالة أنباء وقناة تلفازية وصحيفة يومية بهذا الاسم، بل إن قَضيَّة أُمَّتنا الأولى.. قَضيَّة فلسطين.. لم تعد تُسمَّى في إعلامنا إلا بالتسمية التي أطلقها الغرب: "مشكلة الشرق الأوسط".

ومن الواضح أن عدم تسمية قَضيَّة فلسطين باسمها الحقيقي فيه إبعاد عن صدى كلمة فلسطين في نفوس أفراد أُمَّتنا. ولقد أصبحنا في تقليد أعمى لإعلام أعداء أُمَّتنا نَتحدَّث عن " مشروعات سلام"؛ وهي في حقيقتها

---

(١) نُشِرت في صحيفة **الجزيرة** بتاريخ ٢٣/ ٧/ ١٤٣١هـ الموافق ٥/ ٧/ ٢٠١٠م.

مشروعات تسوية يُحاوَل أن تتم بين جانب قوي يفرض شروطه؛ وهو الجانب الصهيوني المُؤيَّد تأييداً غير محدود من قِبَل المتصهينين، وجانب ضعيف تَدلُّ الدلائل على أنه؛ قادة وشعوباً، فقد ثقته بنفسه، أو يكاد يفقدها، حتى بات يقبل تلك الشروط أو معظمها؛ تائهاً وراء سراب مفاوضات عبثية. بل إن أجهزة إعلامنا التابع المتخلف أصبحت تذيع أخبار الجرائم الصهيونية تماماً كما يفعل إعلام أعداء أُمَّتنا وكأنها تذيع أخبار نشرات الطقس دون إيحاء بتأثُّر لما يحدث ويُرتكَب من جرائم.

وفي عام ١٤٢٤هـ كتبت مقالة نُشِرت في صحيفة **الجزيرة**، أيضاً، بعنوان "الانزلاق الإعلامي مَرَّة أخرى". وإضافة إلى الإشارة إلى ما سبق أن ذكرته في المقالة السابقة تَحدَّثت باختصار عن بعض أجهزة إعلام أُمَّتنا في تناولها لقَضيَّة العراق بالذات قبل احتلال ذلك القطر العربي الإسلامي وبعد احتلاله. وكان من هذه الأجهزة ما راحت تُردِّد - بغباء أو بدوافع ذاتية مريضة - ما كان يُروِّجه الإعلام الصهيوني والمتصهين من أن هدف الهجوم على العراق هو القضاء على أسلحة الدمار الشامل. ولم يخطر ببال أرباب تلك الأجهزة المنزلقة وراء إعلام أعداء أُمَّتنا أن فرق التفتيش الدولية لم تعثر على أسلحة دمار شامل رغم عملها المتواصل. ولما غَيَّرت أجهزة هؤلاء الأعداء عباراتها - نتيجة الفشل في العثور على هذه الأسلحة التي زُعِم وجودها - إلى عبارات أخرى؛ مثل القضاء على الظلم والدكتاتورية، لم تستطع أجهزة إعلام أُمَّتنا المنزلقة وراء إعلام أعدائنا لغبائها أو كونها مريضة موتورة، إلا أن تتبع إعلام الأعداء. ومن ذلك أنها باتت تُسمِّي " قوات الاحتلال"، كما هو واقعها، " قوات التحالف". ومن المعلوم أن تسميتها بالاسم الأخير المخالف للواقع إنما يراد به إبعاد كلمة "الاحتلال" عن آذان المستمعين لما تعنيه من حدوث عدوان نتج عنه اغتصاب سيادة وطنية. وقد اختتمت تلك المقالة بالقول: هل يستطيع

إعلامنا أن يَتحرَّر من ربقة استعمار إعلام أعداء أُمَّتنا؟ وقلت: إنه لا يبدو في الأفق بوادر للتحرُّر، والسبب هو: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١/١٣]. كان ما سبق ذا صلة بجرحين غائرين من جراحات أُمَّتنا: فلسطين والعراق. فماذا عن جرح هذه الأمة المنكوبة في أفغانستان؟ عندما كان هناك طرف غربي من أعداء أُمَّتنا يحاول أن يثأر من عدو له بمحاربة قواته التي تَوغَّلت في أفغانستان مناصرة لحكومة شيوعية فيها سَمى أعداء أُمَّتنا من الغربيين من قاوموا قوات السوفييت المُتوغِّلة في بلادهم - كما تَسمَّوا - " المجاهدين". وراح إعلامنا التابع يُسمِّيهم " المجاهدين". وفي هذا مصداقية وإن لم تكن مراعاة من قِبَل الغربيين حتماً. وانهار الاتحاد السوفيتي، الذي كان قائد معسكر مضاد للغرب الرأسمالي. وفَتَّش من الغربيين من فَتَّش عن عدو بديل؛ إذ إن قادته في نظرهم أنه لا بد من خلق عدو لهم إن لم يكن هناك ما هو موجود فعلاً. فكان المسلمون؛ وبخاصة بعد تنامي التوجُّه الديني في أقطار إسلامية مُتعدِّدة، هم العدو المختلق. وتَغيَّرت الأمور على أرض أفغانستان، فأصبح حلفاء الأمس أعداء اليوم، وتَزعَّمت أكبر قوة غربية قوات احتلَّت أفغانستان. وليس الحديث، هنا، عما ارتكبته من جرائم في أثناء عملية الاحتلال وبعده حتى الآن. لكن الحديث مقتصر على تعبير إعلام أُمَّتنا عما حدث ويحدث هناك. قوات الاحتلال - كما هو الاسم الحقيقي لها - أصبحت تُسمَّى تسميات لا تُعبِّر عن الحقيقة؛ مثل " قوات التحالف"، ونحو ذلك. وأصبح من يقاومون وجود هذه القوات المحتلة يُسمَّون تسميات لا تُعبِّر عن الحقيقة تماماً.

ومن بين ما هو متداول في وسائل الإعلام الغربي المعادي لأُمَّتنا ووسائل إعلامنا التابعة له تعبير " المجتمع الدولي" وكل ذي فكر وعقل يدرك تمام الإدراك أن هذا التعبير أبعد ما يكون عن الحقيقة والواقع. بل

الحقيقة والواقع أنه يعبر عن إرادة زعامات محدودة عدداً في العالم، لكنها هي المُتحكِّمة في مجريات أحداث هذا العالم وفق إرادتها. هل هناك مجتمع دولي يُهتَم به أو برأيه وموقفه إذا أرادت تلك الزعامات المحدودة عدداً المُتحكِّمة واقعاً ملموساً في مجريات الأحداث أمراً من الأمور؟

أَصبحت القَضيَّة شكل المفاوضات[1]

تاريخ بعض الزعامات العربية؛ وبخاصة منه ما يتعلَّق بقَضيَّة فلسطين، تاريخ مُلطَّخ بالخزي والعار. فهناك من الزعماء العرب من قاموا بلقاءات منها ما فاحت رائحتها النتنة حين القيام بها، أو بعد ذلك بقليل، وإن حُرِص على أن تكون سِرِّية. ومنها ما لم تفح رائحتها إلا بعد سنوات طالت أو قصرت. وظَلَّ أولئك الزعماء عقوداً لا يذيعون سِرَّ تلك اللقاءات أو يشيرون إليها؛ إما خجلاً من مواطنيهم المبتلين بهم من سوء ما قاموا به عندما كانت لا تزال هناك بقية من حياء، أو خوفاً من غضب هؤلاء المواطنين الذين كانت ما تزال فيهم عروق تنبض بالغضب مما يستدعي الغضب.

على أن ذهاب من ذهب ليلقي خطاباً في الكنيست الصهيوني؛ مُسمِّياً فعلته التي فعلها كسر الحاجز النفسي، كان بداية السفور عن وجوه اللقاءات مع الصهاينة. ثم كانت مفاوضات كامب ديفيد، التي كان راعيها الرئيس الأميركي، جيمي كارتر، أشد حرصاً من كاسر الحاجز النفسي على عدم الاندفاع في الاستجابة لشروط مجرم الحرب، مناحيم بيجن؛ أملاً في أن يُتوَصَّل إلى ما قد يرضي عدداً من الزعماء العرب، الذين كانت لديهم قابلية لِلتخلِّي عن الصمود أمام العدو المغتصب للأراضي العربية. بل إن وزيري خارجية الزعيم العربي المفاوض؛ واحداً بعد آخر، كانا ضد تلك الاستجابة للشروط الصهيونية في تلك المفاوضات. وهكذا

---

(١) نُشِرت في صحيفة **الجزيرة** بتاريخ ٣٠/ ٠٧/ ١٤٣١هـ الموافق ١٢/ ٠٧/ ٢٠١٠م.

" صَلَّع الجرب"، كما يقول المثل الشعبي. ومع مرور الأيام ازدادت معرفة الكثيرين بأخطار اتِّفاقية كامب ديفيد وتداعياتها المأساوية.

ثم جاء عدوان صدام حسين الأرعن على الكويت واحتلال ذلك القطر العربي لإلغاء وجود دولة مستقلة لينزل كوارث لا تحصى بأُمَّتنا. وليس المجال، هنا، مجال تعداد هذه الكوارث أو أكثرها. لكن تجدر الإشارة - والحديث في المقالة عن المفاوضات مع الكيان الصهيوني - إلى أن من نتائج ذلك العدوان أن الزعماء العرب، الذين لم يكن يُظَن أنهم سيقبلون الجلوس على مائدة المفاوضات مع ذلك الكيان، استجابوا طائعين مختارين لدعوة الإدارة الأميركية إيَّاهم بأن يجلسوا للتفاوض معه في مؤتمر مدريد. وكانت تلك الاستجابة من أَجلِّ الخدمات التي قَدَّمتها إدارة بوش الأب للصهاينة، كما ذكر ذلك وزير خارجيته، جيمس بيكر؛ إذ كانوا يَتطلَّعون إلى ذلك أكثر من أربعين عاماً على حَدِّ قوله.

وكان مما حدث في مؤتمر مدريد تألُّق الدكتور عبدالشافي والدكتورة حنان عشراوي من الوفد الفلسطيني. غير أن هناك من لعب وراء الستار، فقام بمفاوضات أوسلو، التي أَدَّت إلى اتِّفاقية ما زال الفلسطينيون - وسيظلُّون - يعانون من آثارها السلبية الخطيرة على قضيتهم، التي هي قَضيَّة العرب والمسلمين عموماً. ومنذ توقيع تلك الاتِّفاقية وأمران يسيران جنباً إلى جنب، أولهما تهويد الأراضي الفلسطينية، التي احتلَّها الصهاينة عام ١٩٦٧م بحيث أصبحت المستعمرات (المستوطنات) الصهيونية وما يخدمها من الأراضي تَحتلُّ أكثر من أربعين في المئة من الأراضي المُحتلَّة في ذلك العام. أما القدس فعجلة تهويدها سريعة الدوران. والصهاينة بكل صلف ووقاحة يقولون: إنه لا مجال للحديث حولها، فهي قد أصبحت جزءاً من دولتهم؛ بل عاصمة مُوحَّدة لهذه الدولة. وثاني الأمرين مواصلة المفاوضات العبثية بين قادة الصهاينة وزعماء السلطة الفلسطينية مُؤيَّدين من

جامعة الدول العربية التي يعلم الكثيرون كيف تدار الأمور فيها. أما غالبية العرب؛ فلسطينيين وعرباً غير فلسطينيين، فلا أعتقد أن منصفاً يمكن أن يقول: إنها تُؤيِّد استمرار تلك المفاوضات، أو إن المفاوضات يمكن أن تُؤدِّي إلى استعادة الحقوق التي انتزعها الغاصبون الصهاينة مدعومين دعماً كاملاً من المتصهينين في الدول الغربية عامة وفي أميركا خاصة.

الأمة المبتلاة بقيادات منهزمة الإرادة - رغم وجود وسائل لديها بإمكانها لو لم تنهزم هذه الإرادة تحقيق انتصارات تستعيد بها حقوقها - لا يستغرب منها أن تختزل قضاياها المصيرية إلى مهازل يكاد لا يصدقها العقل السليم. في الأيام الأخيرة بلغ مستوى انحطاط تعامل أُمَّتنا المنهزمة إرادتها قيادياً المُدجَّنة شعبياً مع قضيتنا الفلسطينية هو هل تكون المفاوضات مع مجرمي الحرب من قادة الكيان الصهيوني مفاوضات مباشرة أو غير مباشرة؟ لا أحد يستطيع أن ينكر أن المفاوضات بين القادة الصهاينة وأركان السلطة الفلسطينية، التي كادت تكون مستمرة دون انقطاع منذ اتِّفاقية أوسلو سيئة الذكر والتداعيات، لم تُؤدِّ حتى الآن إلى نتائج إيجابية بالنسبة لجوهر القَضيَّة الفلسطينية.

ومما يشاهد على أرض الواقع ما يأتي:

١- أن قادة الصهاينة - وهم منتخبون انتخاباً يختلف عن انتخاب من يظهرهم الإعلام المُضلِّل بأنهم منتخبون شعبياً من قادة أُمَّتنا - يُصرُّون على أن لا عودة للاجئين الفلسطينيين إلى وطنهم، ولا انسحاب إلى حدود ما قبل حرب ١٩٦٧م، ولا قبول للحديث عن القدس ومسجدها الأقصى؛ بل تهويد لها وعمل متقن متواصل يهدف إلى هدم الأقصى في نهاية الأمر.

٢ - أن المفاوضات - مهما بدت مهزلة الجدل حول كونها مباشرة أو غير مباشرة - متواصلة بين قادة الكيان الصهيوني المدعومين دعماً واضحاً

جلياً من المُتحكِّمين في مسيرة أحداث العالم وزعماء السلطة الفلسطينية المُكبَّلة بمواد اتِّفاقية أوسلو المجحفة بحق الشعب الفلسطيني، المُخوَّلة من الجامعة العربية معروفة التاريخ المثبت لعجزها عن القيام بدور إيجابي، حق متابعة الجري وراء سراب المفاوضات العبثية.

٣- ما يعلنه المغالطون من تَمسُّك بلاءات؛ مثل لا تنازل عن حق عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى فلسطين، ولا تنازل عن وجوب انسحاب الصهاينة إلى حدود عام ١٩٦٧م، ولا تنازل عن إقامة دولة فلسطينية كاملة السيادة على الأراضي المحتلة ذلك العام بما فيها القدس عاصمة لها... ما يعلنه هؤلاء هل يوجد من يصدقه في ضوء ما يشاهد من تنازلات متتالية؟

٤- يَتحدَّث المُتحدِّثون؛ خداعاً وتضليلاً، عن وجوب قيام دولة فلسطينية " قابلة للحياة" ، لكنهم لا يُحدِّدون مدى هذه الدولة؛ سيادة سياسية، وأرضاً شاملة لكل الأراضي المُحتلَّة عام ١٩٦٧م، كما لا يَتحدَّثون عن حق عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى وطنهم؛ ناهيك عما لحق بهم وبإخوانهم الذين وقعوا تحت الاحتلال الصهيوني منذ العام المذكور أو اضطروا إلى الهرب من نير هذا الاحتلال.

والذي يَتوقَّعه كاتب هذه السطور - وقد يكون مخطئاً في تَوقُّعه المتشائم - أن المفاوض الفلسطيني مع الكيان الصهيوني لن يَظلَّ مُتمسِّكاً بحق عودة اللاجئين الفلسطينيين مع أنه حق أَقرَّته الأمم المتحدة، ولا بالانسحاب الصهيوني الكامل من الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧م، ولا بحق الفلسطينيين في إقامة دولة كاملة السيادة؛ أرضاً وبحراً وجواً. وإذا وقعت الواقعة بشطب ذلك التمسُّك، وتُوصِّل إلى تسوية مع الصهاينة مرعية من الجانب الأميركي، فإن كوارث داخلية؛ فلسطينياً وعربياً، ستكون أَنكى مما حَلَّ بأُمَّتنا من قبل وما يَحلَّ بها الآن.

عُزْلة الدولة الصهيونية[1]

كثيراً ما تَحدَّث المُتحدِّثون في وسائل الإعلام؛ وبخاصة في ميدان الصحافة اليومية، عن عُزْلة الدولة الصهيونية. ومن هؤلاء من انخدعوا باستنكارات لمواقفها الإجرامية قام بها أفراد غمرت قلوبهم مشاعر إنسانية، فوقفوا مع الحق ضد الظلم والجور، أو بألفاظ جوفاء أطلقها ساسة هنا أو هناك في بلدان غربية. ومن أولئك المُتحدِّثين عن عُزْلة الدولة الصهيونية من هم غير منخدعين بما ذُكِر؛ بل جاء حديثهم محاولة لتهدئة العواطف، ومن ثم للحيلولة دون تنامي تلك العواطف وتَحوُّلها إلى يقظة إيجابية.

أذكر أن كتابات ظهرت في العقد السادس من القرن الميلادي الماضي مُركِّزة على مقولة رُوِّج لها كلَّ الترويج؛ وهي: " الزمن ليس في صالح الكيان الصهيوني". ووقعت الواقعة مُتمثِّلة في الهزيمة التي سُمِّيت نكسة عام ١٩٦٧م. وبعد تلك الهزيمة، أو النكسة، ظهرت كتابات لكتاب من أمثال محمد حسنين هيكل - وهو من هو اطِّلاعاً ومقدرة وتأثيراً - يفهم من كتابتهم الدعوة إلى عدم مقاومة العدو، أو تأجيل المقاومة على الأقل، لأن الفارق كبير بين من لديه الصاروخ ومن لا يملك إلا السيف. وكان في ذلك ما فيه من تَجنٍّ على الحقيقة وإن كان ظاهر العبارة المقولة بَرَّاقاً؛ وذلك لعدة أسباب. أولها ما ذكره العالم العسكري الكفؤ، محمود شيث خطاب، رحمه الله رحمة واسعة؛ وهو أن من أسباب ما حدث،

---

(١) نُشِرت في صحيفة **الجزيرة** بتاريخ ٠٧/٠٨/١٤٣١هـ الموافق ١٩/٠٧/٢٠١٠م.

عام ١٩٦٧م، هو عدم التهيؤ والإعداد اللازمين قبل المجابهة العسكرية، والفشل الذريع في التصرُّف حين حدوثها. وثاني تلك الأسباب أن العرب كانوا يملكون أسلحة جيدة - لا سيوفاً -، لكن تلك الأسلحة لم تُستعَمل الاستعمال اللائق عسكرياً. بل إن سلاح الطيران على إحدى الجبهات؛ وهو من الأسلحة المُهمَّة جداً، كان المُهيئون لاستخدامه غارقين في نومهم - رغم كُلِّ النُّذر - حتى ضُرِبت الطائرات وهي على مدرجات مطاراتها.

وللحقيقة والواقع لا بد من ذكر أنه كانت توجد قيادات عربية عظيمة لديها إرادة لم تثنها الهزيمة الساحقة، فاتَّخذت ما اتَّخذت من قرارات في مؤتمر الخرطوم المشهور الذي عُقِد بعد تلك الهزيمة. وكان وجود تلك القيادات هو العامل الرئيس في قيام عدد من الدول بقطع علاقاتها مع الكيان الصهيوني، وفي صدور بيان من الأمم المتحدة يصف الصهيونية بالعنصرية. ولو قيل حينذاك: إن هناك عزلة للكيان الصهيوني لكان في القول وجه من وجوه الحقيقة.

ثم دارت الأيام دورتها، وغابت تلك القيادات العربية العظيمة عن مسرح الأحداث لينقلب ما تَقرَّر في مؤتمر الخرطوم رأساً على عقب، وتستعيد الدول، التي قطعت علاقاتها مع الكيان الصهيوني، تلك العلاقات من جديد. ليس هذا فحسب؛ بل إن دولاً عربية أقامت علاقات مع ذلك الكيان أيضاً. أما وصف الصهيونية بالعنصرية فصدر من الأمم المتحدة ما يلغيه؛ وذلك بفضل أميركا الصديقة جداً للعرب. ومع كل ذلك فما زال هناك من الكُتَّاب من يقولون: إن الدولة الصهيونية أصبحت معزولة. وكان مما دعا إلى ذلك القول ردود الفعل التي بدت في بلدان عديدة للجريمة التي ارتكبها قادة الصهاينة ضد غَزَّة وأهلها في العام الماضي؛ وهي ما كان من نتائجها تقرير جولدستون المعروف؛ إضافة إلى

ما ارتكبوه ضد أسطول الحرية؛ لا سيما قتل المواطنين الأتراك على ظهر سفينة مرمرة في المياه الدولية.

وللمرء أن يسأل ما أهمية ذلك كله بالنسبة للكيان الصهيوني؟ لقد أجاب عن هذا السؤال قبل عقود من الآن مجرم الحرب موشي دايان عندما قال: " لا يَهمُّنا العالم كله ما دامت أميركا معنا". والمؤلم أن كلامه ينطوي على شيء من الحقيقة. فقادة هذه الدولة المُتجبِّرة المُقرِّرة ما يجوز وما لا يجوز على العالم، المُتحكِّمة في مجريات كثير من الأمور الدولية، لا يمكن إلا أن يكونوا مع الكيان الصهيوني. منهم من يقف معه نتيجة تَصهين واضح. ومنهم من يقف معه نتيجة خوف من سطوة اللوبي الصهيوني داخل أميركا، أو رجاء في مساندة هذا اللوبي له في الانتخابات. أما المُتصهينون فأمرهم لا يحتاج إلى دليل. وأما الآخرون فمن الأدلة على وضعهم المُوجِّه لمواقفهم أن الإدارة الأميركية الحاضرة لم تستطع أن تبقى مُتمسِّكة بما أعلنته سابقاً. كانت هذه الإدارة تعلن معارضتها للتوسع الاستيطاني؛ سواء ببناء مستعمرات جديدة أو بتوسيع ما كان موجوداً منها. لكنها تراجعت عما سبق أن أعلنته بالنسبة لهذا الموضوع. ومع أن كثيراً من الدول - بما في ذلك دول أوروبية - قد أدانت ما ارتكبه الكيان الصهيوني من جريمة بشعة تجاه أسطول الحرية فإن نائب الرئيس الأميركي قال: إن ما قامت به إسرائيل كان من حقها وإنه دفاع عن النفس. ولقد عاد رئيس وزراء الكيان الصهيوني، نتنياهو، من لقائه بالرئيس الأميركي نفسه وكل الدلائل تشير إلى أنه أُعطِي الإشارة الخضراء بأن يواصل مخططاته تجاه تهويد القدس وغيرها من المناطق المحتلة عام ١٩٦٧م.

عندما يقال عن دولة: إنها معزولة، فإن هذا القول يصح لو كان دولة غير الدولة الصهيونية، التي لا ترى أهمية حقيقية لأَيِّ موقف ضدها وإن

كان من منظمات دولية ما دامت أميركا معها. أميركا لها الكلمة النهائية في مجريات السياسات الدولية، وللصهاينة وسائلهم الخاصة الفعالة في جعل هذه الدولة العظمى لا تخرج عما يَتمنَّونه ويريدونه.

وُعُود قادة الغرب[1]

المتأمِّل في مسيرة التاريخ وفي مجريات أحداث الزمن الحاضر يَتَّضح له أن وعود قادة الغرب منها ما وُفِي بها ومنها ما لم يُوفَ بها. ولا يعتمد الوفاء بتلك الوعود أو عدم الوفاء بها على من قاموا بالوعد فحسب؛ بل يعتمد على مكانة من أُعطِي ذلك الوعد أيضاً. ومن الأدلة على ذلك ما أعطاه قادة بريطانيون وأميركيون لزعماء عرب وصهاينة؛ وذلك بالنسبة لقَضيَّة فلسطين بالذات، التي هي محور قضايا أُمَّتنا.

لقد وعد البريطانيون؛ مُمثَّلين في وزير خارجيتهم بلفور، أن يسعوا إلى قيام وطن قومي لليهود في فلسطين، فَبرُّوا بوعدهم، وكان ما كان من اتِّخاذ خطوات متتالية مدروسة بعناية شيطانية ماكرة حتى تَحقَّق للصهاينة إقامة كيانهم العنصري على أرض فلسطين عام ١٩٤٨م. وكان في طليعة تلك الخطوات تعيين أول مندوب سام لبريطانيا على فلسطين، التي وقعت تحت انتدابها، صهيونياً مخلصاً لصهيونيته. ومن تلك الخطوات فتحهم الباب أمام الصهاينة كي يَتدفَّقوا على ذلك البلد المبتلى بانتدابهم، وتهيئة المجال لهم كي يَتملَّكوا الأراضي ويَتدرَّبوا على الأسلحة التي سهل عليهم الحصول عليها حتى أصبحت لهم عصابات اختلفت أشكال جرائمها بشاعة وعنفاً وإن اتَّفقت أهدافها؛ وهي ممارسة الإرهاب ضد الفلسطينيين.. سكان البلاد الأصليين.. حتى يضطروا إلى مغادرتها، أو يبادوا فيها.

---

(١) نُشِرت في صحيفة **الجزيرة** بتاريخ ١٤/ ٠٨/ ١٤٣١هـ الموافق ٢٦/ ٠٧/ ٢٠١٠م.

وفي الوقت الذي أعطى فيه قادة بريطانيا وعدهم للصهاينة، فَبَرُّوا به واجتهدوا كي يجني أولئك الصهاينة ثماره، كانوا قد أعطوا وعداً للعرب مُمثَّلين في الملك حسين بن علي، رحمه الله، أن يعملوا على أن يكون ملكاً للعرب على كل الأراضي التي ينتزعونها، بتعاونه معهم، من الدولة العثمانية. لكنهم لم يفوا بما وعدوا الحسين به؛ بل تقاسموا ما انتزعوه من العثمانيين مع فرنسا. وكان ما كان لذلك الزعيم الذي غُدِر به بحيث كانت نهايته منفياً إلى جزيرة قبرص حتى أتاه اليقين هناك.

ذلك مثل من أمثلة وعود قادة بريطانيا لزعماء صهاينة وزعماء عرب. وإذا كان قادة بريطانيا رَبَّة المكر والخداع هم الذين أَعدُّوا التربة الخصبة كي تنبت بذرة الصهيونية وتورق في أرض فلسطين فماذا عن قادة أميركا؟

ورد في بيان وزارة الخارجية الأميركية، الذي أحال الرئيس روزفلت الملك عبدالعزيز إليه؛ مُحدِّداً موقف حكومته، ما يأتي:

" كل رئيس (أميركي)؛ ابتداءً من الرئيس ولسون، قد عَبَّر عن اهتمامه الخاص في مناسبة، أو مناسبات عدة، بفكرة وطن قومي (لليهود).. وإنه في ضوء هذا الاهتمام قد راقبت الحكومة الأميركية وشعبها بأشدِّ العطف تَدرُّج الوطن القومي (اليهودي) في فلسطين؛ وهو مشروع لعب فيه الذهب ورأس المال الأميركي دوراً رئيسياً."

ومن الواضح أن ذلك الكلام ليس وعداً، لكنه كان يُعبِّر أصدق تعبير عن موقف أميركي متفانٍ في مناصرة الصهاينة. أما ما يمكن أن يؤخذ وكأنه وعد من الرئيس روزفلت للملك عبدالعزيز فكان قوله في رسالة كتبها إليه عام ١٣٦٢هـ/ ١٩٤٣م: " يَسرُّني أن تتاح لي هذه الفرصة لأكرِّر تأكيدي بأن رأي حكومة الولايات المتحدة أنه، في كل حال، يجب أن لا يُتَّخذ أيُّ قرار يُغيِّر وضعية فلسطين الأساسية من دون التشاور

الكامل مع كلٍّ من العرب واليهود". وما حدث على أرض الواقع هو أن التشاور الأميركي مع اليهود الصهاينة كان مكسباً لهم. ذلك أنه قد تَمَّ ما أرادوا بالتشاور مع أميركا، لكن لم يُؤبَه بأيِّ تشاور مع العرب؛ فلسطينيين وغير فلسطينيين.

وفي عام ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م قال الملك عبدالعزيز: " على أميركا وبريطانيا أن تختارا بين أرض عربية يسودها السلام والهدوء وأرض يهودية غارقة بالدم..". وما سارت عليه الأمور يَدلُّ دلالة واضحة جداً على أن الدولتين اختارتا أرضاً يهودية (في فلسطين) غارقة بالدم.. لكنه كان دم الفلسطينيين، الذي ظَلَّ يغرق تلك الأرض من تاريخ مقولة ذلك العاهل المخلص إلى الآن.

وفي محادثات تَمَّت بين الملك عبدالعزيز والرئيس روزفلت وعد الأخير الملك بقوله: " لن أسمح بِأَيَّة بادرة عدائية من جانب الولايات المتحدة ضد الشعوب العربية... وإن عهد الاستعمار قد وَلَّى وكذلك عصر الإمبراطوريات". وإني لأكاد أعتقد أن كثيرين يعلمون بادرات عدائية عديدة قامت بها أميركا ضد الشعوب العربية؛ لا سيما ضد الشعب الفلسطيني، وأن الاستعمار القديم قد وَلَّى شكلياً، لكنه ما زال ساري المفعول على أيدي قادة أميركا عملياً في بعض الأقطار الإسلامية مُصوِّراً إمبراطورية متغطرسة.

ذلك شيء مما جرى من وعود قبل قيام الكيان الصهيوني العنصري على أرض فلسطين. وما تلا ذلك من وعود رؤساء أميركيين - قبل الإدارة الأميركية الحالية - للصهاينة وُفِي بها ووعود للعرب بعامة والفلسطينيين بخاصة لم يُوفَ بها يعرفه المتابعون للقَضيَّة الفلسطينية. لكن ماذا عن الإدارة الأميركية الحالية؟

الذين كُتِب عليهم أن يؤخذوا إلى معتقل غوانتانامو هم مسلمون بينهم عرب ومنهم غير عرب. ولقد وعد الرئيس أوباما - قبل أن يصبح رئيساً - بأنه سيغلق ذلك المعتقل فور وصوله إلى الرئاسة، لكنه لم يَفِ بوعده حتى الآن. ووعد بأن إدارته ستتخذ موقفاً حازماً كي يوقف الصهاينة بناء المستوطنات (المستعمرات) في الأراضي الفلسطينية التي احتلُّوها عام ١٩٦٧م بما فيها القدس؛ سواء كان البناء إنشاءً لمستوطنات جديدة أو توسيعاً لمستوطنات سبق أن بُنِيت. لكن البناء ظلَّ قائماً على قدم وساق. الموقف الأميركي المُتصلِّب المشاهد الآن هو موقف الضغط على من ينصاعون لتوجيهات أميركا؛ خوفاً من تسلُّطها أو طمعاً في فتات معونتها، كي يوالوا انصياعهم لتلك التوجيهات. أما قادة الصهاينة فلا يرجع واحد منهم، بعد مقابلته بمسؤولين أميركيين، إلا وقد أُعِطي إشارة خضراء للقادة الصهاينة كي يواصلوا تهويدهم لأراضي الفلسطينيين في القدس وسواها، وإزالة كل ما يَدلُّ على أن المكان كان عربياً إسلامياً. هل الموقف الأميركي الحالي غريب؟ كل الدلائل تَدلُّ على أنه موقف يمثل حلقة في سلسلة من مواقف قادة أميركيين تعاقبوا على زعامة أميركا. المشكلة ليست في موقف قادة أميركا أو بريطانيا. فعداؤهم لأُمَّتنا؛ عرباً ومسلمين، أمر معروف. لكن المشكلة في مواقف لزعماء من أُمَّتنا ابتليت بهم هذه الأمة، فصاروا وبالاً عليها. ومن أروع من عَبَّر عن مواقف هؤلاء الزعماء ووضعهم المزري الدكتور الشاعر الكبير، غازي القصيبي، كتب الله له الشفاء العاجل، وأعاده إلى وطنه مرتدياً ثوب الصحة والعافية[1]. كان تعبيره كما يأتي:

قد عَجَزنا حتى شكا العَجزُ مِنَّا وبَكينا حتى ازدرانا البُكاءُ
ورَكَعنا حتى اشمأزَ رُكوعٌ ورَجونا حتى استغاث الرَّجاء

(١) انتقل إلى رحمة الله يوم ٥/ ٩/ ١٤٣١هـ الموافق ١٥/ ٨/ ٢٠١٠م.

وشَكونا إلى طَواغيتِ بيتٍ أبيضٍ مِلءُ قلبه ظَلماء
أيّها القوم نحن مِتنا ولكن أَنِفت أن تَضمَّنا الغَبْراء

وكان من روائع تعبيره:

قد علمنا تَهوُّد البعض مِنَّا أَوَ لم يَبقَ مَعشرٌ ما تَهوَّد؟